بحوث ودراسات

مفاهيم القرآن وتحديد مهام الأنبياء

طه جابر العلواني*

مقدمة :مؤشرات في المنهج:

مما لاشك فيه أن الرسالة الخاتمة قد استوعبت تجارب النبوات كلها، واستعرضت تاريخ الرسل مع أقوامهم وأنواع خطابهم والحوار والجدل الذي كان يدور بينهم وبين أقوامهم، وتنوع خطابات الأنبياء وتعدد مضامينها –وفقاً لعوامل الاستجابة والرفض والإقبال والصدود والقبول والإعراض، ورسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تكن بدعاً من ذلك.

ولقد عرض القرآن الكريم الكثير من التجارب النبوية التي كانت في بعض الأحيان تواجه بالصدود والإعراض، حتى إذا مات النبي أو فقد اتخذ الناس من قبره وثناً قدسوه وربما اتخذوه رباً أو إلهاً، فحرص القرآن الكريم على أن لا يتكرر هذا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع قومه. من هنا امتلأ القرآن الكريم بالآيات الكريمة التي تحدد المفاهيم بدقة وتضع الفواصل الدقيقة والكبيرة بين النبوة، وهي من عالم الغيب والأمر، والألوهية وهي من عالم الأمر والغيب كذلك، لكي لا تكون هناك أية فرصة للخلط وتكرار أخطاء الأمم السابقة، التي حاولت أن ترى الفوارق بعد طول الأمد وقسوة القلوب بين النبوة والرسالة والربوبية والشفاعة والألوهية والخالقية ومستويات الأمر والإرادة والمشيئة، فأخطأت السبيل وضلت الطريق وحولت النبوات والرسالات إلى وسائل للضلال بدلاً من وسائل هداية. ولذلك فإن القرآن الكريم لم يمل من التوكيد على بشرية الرسول صلى الله عليه وسلم وفي الوقت نفسه وجوب طاعته فيما يأتي به من الله عز وجل والتحذير من مخالفته، خاصة في التحذير من الخط الفاصل الدقيق الذي قد يؤدي إلى الخلط والإرباك بين

---

* رئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية، رئيس جامعة العلوم الإسلامية والاجتماعية، فرجينيا. talalwani@siss.edu
وساعد في إعداد هذا البحث: الباحثة زينب علواني التي جمعت النصوص من المصادر المختلفة وخرجت ما لابد من تخريجه، وناقشت معنا اطروحاته، وتابعت بصبر شديد طباعته وقراءته علينا، وإعادة الطباعة بعد كل قراءة حتى استوى على سوقه بهذا الشكل الذي نرجو أن يكون نوعاً من الإضافة إلى الدراسات الخادمة للسنة النبوية.

متلقي الرسالة وبين صاحبها تبارك وتعالى. وفي هذا الإطار يمكن أن ندرك عظمة الآيات الكريمة الكثيرة التي تعلقت في هذه المجالات وأوضحتها بأفضل ما يكون الإيضاح، ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ﴾، كذلك نستطيع أن نفهم كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر الناس من المبالغة في تعظيمه للأسباب ذاتها، وفي هذا الإطار نستطيع أن نقرأ سائر أحاديثه صلى الله عليه وسلم خاصة التي سبقت انتقاله إلى الرفيق الأعلى على سبيل المثال: فعن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "لا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُنِي."[1]

كل ذلك من أجل أن لا تكرر المأساة وتذهب أنوار النبوة وتحجب الهداية عن البشر، فيتجاوزون سنن الأنبياء منهجاً لفهم وتطبيق رسالة الله ودينه وشرعه، ولو أن هذه الأمة تنبهت في فترات تاريخها اللاحقة كما تنبه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهمية المفاهيم، لما وقعنا في كثير من الخلط الذي أدى إلى اضطراب كثيرين في المفهوم: الحقيقة المحمدية، والنبوة والرسالة، العقل والوحي، الدنيا والآخرة، التعبد والمقاصد...إلخ ذلك الخلط الذي جعل من أبناء الأمة الواحدة شيعاً يكفر بعضها بعضاً دون سبب منطقي.

وما من علم من علوم المسلمين أو نوع من أنواع معارفهم، التي تكونت حول النص القرآنيّ إلا وكان له نوع من التعامل مع السنة النبوية المشرفة كلاً أو جزءاً، وقد أعطى أهل كل علم أو فن أو معرفة للسنة معنى يتفق واصطلاحاتهم، وسواء أعبر ذلك عن حقيقة السنة، أو عبر عن جانب من جوانبها، أو لازم من لوازمها أو لم يعبر إلا عن اصطلاحهم الخاص (فلا مشاحة في الاصطلاح)، فإن ذلك قد ساعد ولو بدون قصد على إلحاق ذلك الغبش بمعنى السنة وحقيقتها، والمراد بها عند الإطلاق، فللأصوليين اصطلاحهم، وللفقهاء مثله، وللمحدثين مصطلح ثالث، وللكلاميين معنى رابع وهكذا، حتى أصبح بيان المعنى المراد عند الإطلاق ضرورة. ولذلك فإننا سنكرس –بإذن الله– هذا البحث لتوضيح بعض المفاهيم الأساسية الكاشفة عن معاني السنة النبوية. من هنا فإننا نرى ضرورة مراجعة تلك المفاهيم وتحليلها ومعرفة الحدود والفواصل بينها، لئلا يلبس على الناس دينهم ويستمر انقسامهم الذي ينتمي إلى مراحل تاريخية متقدمة. ولا نريد أن نستقرئ كل

[1] رواه أحمد في مسند المكثرين رقم الحديث 8449

هذه المفاهيم، بل نريد أن نتناول منها نماذج يمكن أن تكون أمثلة للنماذج الأخرى التي نأمل أن يتم استقراؤها والبحث فيها وإدراك مغازيها ومقاصدها.

وهذا بحث بعنوان مفاهيم القرآن وتحديد مهام الأنبياء وهو جزء من بحث بعنوان "دراسات في السنة النبوية المشرفة" نهدف أن نصل منه وبه إلى تصور دقيق لدور "السنة النبوية" في بناء شخصية المسلم عقلياً ونفسياً، وكذلك في تأسيس مبادئ العمران الإسلامي، وبناء قواعده الحضارية، وإحداث النقلة النوعية في حياة الشعوب الأميّة التي ما جاءها قبل محمد صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين من نذير ولا بشير.

أولاً :النبوة والاصطفاء

اصطفى الله تعالى آدم وذريته وجعلهم خلفاء الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 30) وكأنه سبحانه أراد أن ينبه الملائكة، بأنهم لم يكونوا يعلمون أن الهدف من هذا الاستخلاف، ليس العبادة المجردة المشابهة لعبادتهم وتسبيحهم وتحميدهم، الذي يأتي عن فطرة فطروا عليها وطبيعة هيئوا بمقتضاها لذلك، بل المقصود خلافةً وابتلاءً وتدافعاً يمحص الله الناس فيها ليتبين الأحسن عملا من هذا الخلق، والأصلح لوراثة الأرض في الدنيا ووراثة الجنة في الآخرة: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[2] (الأنبياء: 105). فهذا الاصطفاء مرتبط بعبادة لها مفهوم آخر، يتعدى التسبيحَ والتحميدَ والركوعَ وغيرها من الأفعال التي تقوم بها الملائكة عبادة محضة، وتقديساً خالصاً إلى فعل العمران،[3] والقيام بحق الأمانة وأداء مهمة الاستخلاف، لتحقيق الوفاء بالعهد.

---

2 اتلوا آيات سورة الأنبياء من 105-110

3 هو المفهوم الخلدوني البديل لمصطلح الحضارة: فكل عمران حضارة ولا عكس: فالعمران بناء حضارة ربانية تلاحظ منها رؤية كلية للإنسان والحياة والكون، وتلاحظ في تركيبها القيم وغايات الحق من الخلق: أنظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد. مقدمة ابن خلدون، بيروت: دار القلم، 1398 هـ.

- عارف، نصر محمد. الحضارة – المدنية– الثقافة، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1995

ومن رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه في هذه الأرض وحده؛ فبعد أن زوده بما يلزمه من مفاتيح العلم فإنه كذلك سبحانه قد اصطفى من البشر أنبياء ورسلاً، اختارهم من بين عباده ليكونوا أسوة ونموذجاً في تطبيق شرائع الله تعالى قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران: 33-34). فتدارك الله سبحانه برحمته الإنسان وعزز عقله بالنبوات والرسالات ليتلو عليه الأنبياء والمرسلون آيات الله، ويعلموه الكتاب والحكمة، ويدربوه على تزكية نفسه وتطهير ضميره، وإصلاح عمله، وتسديد مسيرته لتنقطع بذلك كل حججه وأعذاره، وينطلق في تحقيق مهمته في التوحيد والتزكية والعمران على الوجه الأكمل، ويحصل على جزائه على الوجه الأوفى الأتم في الآخرة: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً، رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً، لَّكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلآئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً﴾ (النساء: 163-166).

وكما اختلط مفهوم النبوة والرسالة لدى أهل الكتاب فأدرجوا فيها الإلهام والهواتف والتأملات التي تأتي للإنسان وهو في صلاته أو عبادته، فضلوا بذلك وانحرفوا ولم يعودوا يميزون بين وحي يوحى، وبين هذه الأمور التي قد تعرض لأي إنسان، فقط اختلط الأمر على بعض المسلمين في العصور المتأخرة، وعصور الجهالة لدين الله وشرعه، فتوهموا أن الزعامة والذكاء والعبقرية الشخصية من المهام أو الصفات التي جعلت الناس في الماضي يطلقون على هذا النوع من القادة أنبياء ومرسلين في حين أنهم مجرد عباقرة، أو زعماء قوميين أو إقليميين جاءوا لإنقاذ أقوامهم وشعوبهم أو توحيدهم؛ فسووا بذلك بين العبقرية والذكاء –وهي صفات عامة مشتركة يتصف بها الناس كسباً أو موهبة– وبين النبوة أو الرسالة التي هي شأن من شؤون الغيب، ولا دخل للكسب الإنساني فيها، فليست هناك معاهد أو أماكن لتأهيل أنبياء أو رسل، وليست هناك برامج إنسانية محددة لإيجاد أنبياء ومرسلين، بل هي اصطفاء إلهي واختيار رباني. فالنبي أو الرسول لا يدري قبل أن يتم اصطفاؤه أنه سيكون نبياً أو رسولاً ولم يتشوف لذلك ولم يحاول امتلاك مؤهلات، ولم يتقدم بطلب إلى الله تعالى ليتخذه نبياً أو رسولاً.

ولذلك فإن من أخطر محاولات التزييف تلك المحاولات التي قام بها البعض واجتال كثيراً من المسلمين عن دينهم بما ظنه بعضهم –جهلاً– مدحاً للنبي صلى الله عليه وسلم فأقر بالعبقرية لينفي النبوة والرسالة، ولينفي الجانب الغيبي، دون أن يتهموا بإنكار النبوة والرسالة، فأصبح من الضروري التنبه لمفهوم النبوة والرسالة والوحي والإيمان كما جاءت في كتاب الله لا بالشكل الذي أراده أولئك المحرفون.[4]

وإذا كان الوحي الإلهي الذي نزل صحائف وكتباً وألواحاً ووصايا قد تم التصديق عليه بالقرآن المجيد فإن القرآن قد صدق واسترجع وهيمن على تجارب النبوات من قبل مع أممهم، وبعد ذلك التصديق والهيمنة، فقد أمر القرآن رسول الله عليه الصلاة والسلام بالاهتداء بتجارب من النبيين والمرسلين: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ...﴾ (الأنعام: 90) وأعلن عن وحدة "أمة الأنبياء" في ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 92) منذ ذلك الحين والتاريخ البشري يسطر صفحاته في تدافع أولياء الرحمن ضد أولياء الشيطان والأجيال البشرية تتعاقب والحضارات تبنى وتبيد، والأيام تتداول بين الناس، والناس منهم القاسطون، ومنهم دون ذلك.

ثانياً :النبوة والرسالة:

النبي بغير همز فقد قال النحويون أصله الهمز واستدلوا بقولهم "مسيلمة نبيئ سوء". جاء في لسان العرب:[5] النبي المكان المرتفع، وقيل النبي: ما نبا من الحجارة إذا نجلتها الحوافر، والنبي: العلم من أعلام الأرض التي يهتدى بها، قال بعضهم: ومنه اشتقاق النبي لأنه أرفع خلق الله ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ (مريم: 57)، وذلك لأنه يهتدى به. والنبي هو الذي أنبأ عن الله وصف من النبأ وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم، والنبيّ بغير همز أبلغ من النبيء بالهمز، لأنه ليس كل منبأ رفيع القدر والمحل، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام لمن قال: يا نبيء الله فقال: "لست بنبيء الله ولكن نبيّ الله"[6] لما رأى الرجل خاطبه بالهمز بغضاً منه. والنبوة

---

4 ونستطيع أن نضرب مثلا بكتاب ميشيل عفلق، ذكر النبي العربي، الذي أكثر فيه من الثناء على النبي صلى الله عليه وسلم حتى توهم أتباعه أنه قد صار مسلماً مع أن إعجابه برسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو إعجاب بزعيم قومي منقذ وباني لأمة فقط.

5 انظر: ابن منظور، لسان العرب، بيروت: دار صادر/ دار بيروت للطباعة والنشر، ج15، ص301 وما بعدها، والراغب الأصفهاني، المفردات، بيروت: دار صادر، ص482، ورضا، محمد رشيد. الوحي المحمدي، مرجع سابق، ص84 وما بعدها.

6 الأصفهاني، المرجع السابق، ص482

والنباوة: الارتفاع، ومنه قيل نبا فلان مكانه وهي الشرف المرتفع عن الأرض ويصح فيه معنى الفاعل والمفعول لأنه منبيئ عن الله تعالى ومنبأ منه، والنبي بالتشديد أكثر استعمالاً، أبدلت الهمزة ياء، أو هو من النبوة والرفعة والشرف. ويطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذي يخبر بشيء من أمور الغيب المستقبلة، وقيل إن معنى أصل مادته في العبرانية القديمة المتكلم بصوت جهوري مطلقاً أو في الأمور التشريعية، وهو عندنا من أوحى الله إليه وحياً، فإن أمره بتبليغه كان رسولا، هذا مفهوم خاطئ في ظني فالنبي مكلف بالبلاغ كما أن الرسول مكلف كذلك. ولكن الفرق بينهما أن الرسول يأتي بدين وشريعة جديدة بينما النبي مجدد لشريعة رسول سبقه. ثم إذا كان المؤمن مكلفاً بالبلاغ فكيف بالنبي؟ فكل رسول نبي، وما كل نبي رسولاً."[7] ولقد جمع بين اللفظين لبعض الأنبياء كقوله تعالى: ﴿فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 158).

والرسول: مِنْ أرسل الشيء أي أطلقه وأهمله،[8] قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ (مريم: 83) ومعنى الإرسال: التسليط، قال أبو العباس: الفرق بين إرسال الله عز وجل أنبياءه وإرساله الشياطين على أعداءه، أن إرساله الأنبياء إنما هو وحيه إليهم أن أنذروا عبادي، وإرساله الشياطين تخليته وإياهم. وجاء في المفردات:[9] أصل الرسل: الانبعاث على التؤدة، ويقال: ناقة رسلة سهلة السير وإبل مراسيل منبعثة انبعاثاً سهلاً، ومنه الرسول المنبعث. وتصور منه تارة الرفق فقيل: على رسلك إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول، وتارة لمتحمل القول والرسالة، قال تعالى ﴿وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (يوسف: 19)، ﴿فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: 50).

---

7 رضا، رشيد. الوحي المحمدي، مرجع سابق، ص85

8 لسان العرب، مرجع سابق، 283/11 وما بعدها.

- الرازي، محمد بن أبي بكر. مختار الصحاح، بيروت: مكتبة لبنان، 1995م، ص102. حول معنى النبي: 268-269

9 الراغب الأصفهاني، المفردات، مرجع سابق، ص195

ورسل الله تارة يراد بها الملائكة، وتارة يراد بها الأنبياء، فمن الملائكة[10] قوله تعالى: ﴿إنه لقول رسول كريم.﴾ (التكوير: 19) ومن الأنبياء قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: 144)، فمحمول على رسله من الملائكة والإنس. والإرسال يقال في الإنسان وفي الأشياء المحبوبة والمكروهة، وقد يكون ذلك في التسخير كإرسال المطر والريح[11] ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ (نوح: 11). ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾ (فصلت: 16).

الأنبياء في القرآن:

لقد جاء القرآن الكريم برسالة كاملة تامة. فحوى الدين –كله– فصدق وهيمن على تراث النبيين كافة ليحفظ تراث تلك النبوات السابقة ويبرئ ساحة الأنبياء الذين أتهموا بطلاناً وزوراً وابتلوا بالقصص المختلفة، وبذلك منح القرآن الإنسانية صوراً لنماذج بشرية فذة في عصور مختلفة ومتنوعة في بنيتها، فلو يبق للبشر حجة تسوغ ارتكاب الشر واتباع الشيطان، فأكد على بشرية الأنبياء ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِين﴾ (الأنبياء: 7–8)، بل ورسم القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم الخطوط الرئيسية في منهج التعامل مع الأنبياء واحترامهم فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ لَوْلا مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ (البخاري)،[12] وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ لا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاء[13] (رواه البخاري)، كما أكد القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم على عصمة الأنبياء من ارتكاب الكبائر والذنوب العظيمة التي اتهم بها الأنبياء في بعض كتب أهل الكتاب، حتى أنزلوا منزلة تقل

10 وقوله ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم..﴾ وقال ﴿ولما جاءت رسلنا إبراهيم..﴾ وقال ﴿والمرسلات عرفا﴾ وقال ﴿بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾.

11 المفردات، مرجع سابق، ص195

12 البخاري، كتاب المناقب، رقم الحديث: 3270

13 البخاري، كتاب الديات، 6405

بالدونية عن الإنسان العادي، ورسم تلك الصورة للأنبياء كانت لغاية في نفوس الأحبار وأتباعهم، كي يرتقوا بأنفسهم إلى منزلة الأنبياء، فيحلون ويحرمون ما يشاءون، ولذلك جاء القرآن الكريم ليطهرهم مما ابتلوا به، وليثبت مسألة العصمة للأنبياء والرسل فلا يجرؤ أحد على اتهامهم بارتكاب الكبائر والفواحش ويجعل كل من يخالفهم مخالفاً لشرع الله ودينه ومن تلك النماذج:

عيسى وأمه مريم:[14] قد يكون من أشد الأنبياء تعرضاً للتشويه والتحريف سيدنا عيسى وأمه، فقد أورد القرآن الكريم تفاصيل دقيقة عن طبيعة حياتهما بأساليب متعددة، منها: المحاورة مع المعاندين الذين ارتقوا بهما إلى أكثر مما ينبغي فألهوا عيسى أو نادوا به ابناً لله تبارك وتعالى، أو مع أولئك الذين لفقوا لهم التهم الهابطة، وكذلك قدم القرآن الكريم حياتهما بشكل سرد قصصي سلس، يرصد فيه أهم الأحداث والتغييرات التي وقعت لهما كما جاءت في سورة مريم 16-37، وكأن مريم كانت محور السورة ومدار مركزيتها، حيث تم التأكيد على براءتها واصطفائها على نساء العالمين، كذلك في سورة آل عمران وما جاء به من تفاصيل دقيقة عن بركة أسرتها، وحسن نشأتها، وتربيتها، بالرغم من يتمها وفقدانها لوالديها ثم كفالة زكريا لها، حيث يقدم القرآن الكريم هنا نماذج لعلاقات مختلفة تحكم فيها القيم والمبادئ العليا التي يستبطنها كل دين سماوي.

سليمان بن داود: لقد اتهم سليمان بالسحر فبرأه الله في سورة البقرة: ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر.. ﴾ (البقرة:102) كما أظهر القرآن الكريم جوانب مضيئة أخرى من شخصية سليمان عليه السلام في حكمته وحسن تدبيره للملك الذي وهبه إياه الله سبحانه وتعالى وحسن شكره لله، بل وحسن أسلوبه في الدعوة إلى الله تعالى. وهكذا امتدت مساحة التعريف بسليمان في سور وآيات عديدة في النمل والأنبياء، وسبأ، وص وغيرها.

وكذلك فعل القرآن الكريم مع إبراهيم ونوح وموسى وإسماعيل وزكريا ويحي وغيرهم، ليجعل منهم نماذج بشرية يقتدي بها في تثبيت القيم العليا التي تعد أساس العمران الإنساني على وجه الأرض إلى يوم القيامة.

---

[14] انظر: البقرة: 87، 136، 253، آل عمران: 45-59، 84، النساء: 157-1717، المائدة: 46، 78، 110-116، الأنعام: 85، الأحزاب: 7، الشورى13، الزخرف 63، الحديد، 27، الصنف: 14، 6، التحريم: 12.

علاقة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمن سبقه من الأنبياء

لقد لخص القرآن الكريم هذه العلاقة بمواضع مختلفة كل منها يمثل محوراً من محاور تلك العلاقة التي تتشعب امتداداتها ما بين العام والخاص، والمجمل والمفصل، حيث يتمثل إطار العلاقة العام في آيات سورة الأنبياء حينما طافت آيات السورة على الكثير من الأنبياء والمرسلين ما بين تفصيل وإجمال،[15] وختمت تلك الجولة بقوله تعالى: ﴿هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 92)؛ فالأنبياء أمة واحدة في طبيعة رسالاتهم ومصدريتها وأسس دعوتها إلى إقامة القيم العليا وتزكية النفس الإنسانية لإقامة أركان العمران في الأرض. ولقد بين القرآن الكريم جوانب الاشتراك والاختلاف كما بيّن الثوابت والمتغيرات في رسالات الأنبياء والرسل، حيث أكد على أربعة مناطق مهمة هي العقيدة، والقيم، والأخلاق الإنسانية، ثم الشريعة والمعاملات، فتشترك دعوات الأنبياء جميعاً في منطقتي العقيدة والقيم، فجميع الأنبياء يدعون إلى عبادة الله الواحد الأحد وتثبيت القيم العليا وهذا ما أكد القرآن معانيه في مواضع عديدة خاصة في سورة الأنبياء في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: 25)، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ..﴾ (النحل: 36) فيكون حيز الاشتراك في الأصول والعموميات كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ (الشورى:13)، أما التفاصيل والتشريعات فتختلف من شريعة إلى أخرى حيث تستبطن معاني المرونة، لتترك مجالاً للاجتهاد الإنساني في تعامله مع متغيرات الزمان والمكان، وبين ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.﴾ (المائدة: 48).

---

[15] الآيات من سورة الأنبياء 48-92

وهكذا أكد سبحانه في إطار الوحدة النبوية أنه ما كان محمدٌ صلى الله عليه وسلم بدعاً من الرسل، وإنما هو خاتم الأنبياء، وهذا ليفتح بوابة المحاورة مع أهل الكتاب من جهة، ومع الذين يزعمون أنهم اتباع إبراهيم من جهة أخرى. ولقد أثار الأصوليون تساؤلاً حول تعبد النبي بشرع من قبله قبل البعثة وبعدها،[16] وذلك لما ورد في القرآن الكريم من الآيات التي تؤكد وحدة دعوة الأنبياء -كما ذكرنا آنفاً في وحدة الأصول- ولذلك فقد انقسم الأصوليون في هذه القضية الخلافية إلى من نفى تعبده بشيء مما سبق، ومن أثبته ومنهم من توقف، وظهر الإشكال هنا نظراً لاختلال في فهم السياق القرآني حيث استدل القائلون بالإثبات بقوله تعالى ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ﴾ (المائدة: 44)، وقوله تعالى: ﴿فبهداهم اقتده﴾ (الأنعام: 90)، وقوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾ (النساء: 163)، وقوله﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾(النحل: 123)، وقوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً.﴾ (الشورى: 13) وكما ذكرنا آنفاً وردت هذه الآيات لتؤكد على وحدة الأصول في الإيمان بالله وحده، وإفراده بالعبادة والتزام القيم والأخلاق التي دعا إليها جميع الأنبياء، أما في التشريعات فإن لكل نبي شرعة ومنهاجاً، ويظهر هذا واضحاً عندما جاء عيسى ليعلن لبني إسرائيل عن تخفيف الشريعة التي جاء بها موسى، وذلك للتأكيد على ملاحظة أهمية حيز المتغيرات في الحياة الإنسانية وإبراز دور الإنسان في التعامل معها، قال سبحانه: ﴿وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ (آل عمران: 50)، ثم تختم الرسالات برسالة الرحمة والتخفيف فيقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ (الأعراف:

---

[16] الرازي، فخر الدين. المحصول في علم الأصول، دراسة وتحقيق د. طه جابر العلواني، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط2، 1992م، ج3، 275-263

157-158). ولذلك كانت خطورة تبني فكرة شرع من قبلنا تكمن في ما يترتب عليها من نتائج قد تعيد شريعة الإصر والأغلال التي حررنا الله منها بشريعة الإسلام.[17]

ثالثاً :مهام الأنبياء:

إن للأنبياء والمرسلين مهاماً حددها الباري جل شأنه بمنتهى الدقة لا يملكون أن يزيدوا فيها أو ينقصوا منها، قال تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف: 9) وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ (فصلت: 6) وقد يحمل حب أمم الأنبياء لهم وظهور المعجزات على أيديهم بإذن ربهم إلى توهم قدرة النبيّ على ما لا يدخل تحت قدرته، وهنا قد يفتتن بعض الناس فيخرجون الأنبياء من دائرة البشرية ويقعون في نوع من الشرك الذي جاء الأنبياء والمرسلون للقضاء عليه، فكانت عملية تذكير الناس بمهام الأنبياء وتحديدها بدقة في الرسالة الخاتمة أمراً في غاية الأهمية، ولذلك وجدنا القرآن الكريم يحدد هذه المهام بوضوح تام، ويضرب مثلاً بالأمم التي انحرفت في تصوراتها لأنبيائها، ويحذر من الوقوع فيما وقع به أولئك، ويؤكد على بشرية الرسل وعصمتهم مع توضيح شاف لمعاني معجزاتهم ومحدودية قدراتهم، ولذلك فإن التوكيد على هذه المهام واستحضارها على الدوام، يعد واحداً من أهم المؤشرات المنهجية التي تستدعى في الكشف عن معاني السنة النبوية ومساحتها التشريعية. وهنا يمكن أن نتساءل: هل كان لكل النبيين سنن؟ وهل هي سيرهم التي أدمجت في النص؟ هل هي سنن متصلة بكتبهم المنزلة أو منفصلة؟ فإن كانت متصلة هل يمكن فصلها عن أصل الكتب السماوية وتمييز الإلهي عن البشري؟ وإن كانت منفصلة فأين نجدها؟ ومن الذي دون هذه السنن والسير، ومتى دونت؟ وهل حصل فيها خلاف أو طرأ عليها تحريف؟ وما علاقة سنة النبي صلى الله عليه وسلم بسنن السابقين من الأنبياء؟ وما أهمية معرفة مهام الأنبياء على تحديد مفهوم السنة؟ وأخيراً ما هي أهم مهام خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم؟ مثل هذه التساؤلات على غاية الأهمية، ومنها يمكن أن يتبين لنا طبيعة الرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم وميزتها عن الرسالات الأخرى، التي أهّلتها لتكون خاتمة الرسالات، والله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته.

---

17 انظر مناقشة الآراء في هذه المسألة في المرجع السابق وأمهات الكتب الأصولية الأخرى.

التلاوة:

إن الله -تعالى- قد أمر نبيه الكريم بتلاوة القرآن كما أنزل إليه على الناس ﴿إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (النمل: 91-92)، ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 151). لقد بينت الآيات وغيرها من الآيات التي وردت في الإطار ذاته أن مهمة تلاوة القرآن الكريم من أولى مهام النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك ليمنح الإنسان في كل زمان ومكان القدرة على تدبره واستخراج الحكمة والموعظة الحسنة، بحيث يستمر القرآن بالعطاء للبشرية، طالما أن الإنسان يتلو هذا الكتاب ويتدبر معانيه، لتنفتح أمامه آفاق النظر والفكر لقراءة الكون ودراسة الواقع ومنهجه وحركته.

التبليغ:

أما التبليغ في اللغة: فهو من بلغ: والبلوغ والبلاغ في اللغة بمعنى الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى، مكاناً كان أو زماناً أو أمراً من الأمور المقدرة، قال تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النور: 54).

ومن المهم استيعاب أن القرآن الكريم حين يستعمل الكلمة العربية، فإنه يخرجها من موقع الكلمة البسيطة، إلى موقع المفهوم الغني بدلالاته وآفاقه، بحيث ينفتح على جملة من المعاني ما كانت ترد على الذهن قبل استعمال القرآن الكريم لها، ووضعها في نظمه وسياقه. ومادة "بلغ" في الاستعمال القرآني لم تعد مجرد إيصال نبأ أو قول ونقله من شخص لآخر، بل يوضح القرآن الكريم معاني مهمة (البلاغ) بأنها تبليغ الأنبياء أقوامهم، وأحياناً -بتطبيقاتهم العملية- لأحكام الله تعالى وفي الآيات التالية نموذج ومثال لتبليغ قضية حساسة للغاية بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إنزال وتبليغ حكم التبني قال تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ،.... ﴾ (الأحزاب:37-48).

فهذه الآيات توضح لنا أن التبليغ مهمة وتكليف للرسل، يتجاوز التطوع، بل يكون أحياناً فيما لا يرغب الرسول اطلاع الآخرين عليه، لكنه أمر الله الذي لا يسعه التردد في تنفيذه حتى لو لم يصادف رغبة أو رضا في نفسه. وفي هذه الآيات لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام مجرد مبلغ لرسالة توسط بين مرسلها والمرسل إليه، بل كان مبيناً بالقول والفعل والعمل في كيفية تطبيق ما ورد في هذه الرسالة.

البيان:

نعني بيان القرآن للناس بحيث تزول الاختلافات بينهم في فهمه، أو تنخفض نسبتها بشكل كبير على الأقل ويصبحون على بينة منه وقادرين على تطبيقه، قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.﴾ (النحل: 43-44) وهذا البيان إليهم يكون بالفعل والقول – والتقرير منه.

وللبيان[18] معنيان: بيان عام وهو يشمل وهو ما يتعلق بالقضايا الأساسية التي اختلفت واضطربت حولها الأمم مثل (معاني الربوبية والألوهية والصفات) وغيرها من المفاهيم التي حصل الانحراف فيها نتيجة الانحراف عن رسالات المرسلين وسير الأنبياء، وبيان خاص يتناول ما يلي:

1. ببيان العقيدة والشريعة الكاملتين العالميتين الصالحتين لكل زمان ومكان وإنسان، لانطلاقهما من منطلقات العموم والشمول، والتخفيف والرحمة، وحل الطيبات، وتحريم الخبائث، ووضع الإصر والأغلال والحرج، والاعتماد على حاكمية الكتاب، وختم النبوة، والجمع بين القراءتين بقراءة إنسانية واعية على دور المقروء والقارئ.

2. بيان العبادات وهو بيان تحتاجه البشرية من عهد الرسالة إلى يوم القيامة، إذ لا يجوز أن نعبد الله تعالى كما نرغب ونهوى فنخترع العبادات التي نريد، بل يجب أن نعبده كما يأمر ويريد؛ فتلك هي العبادة الحقة المقبولة.

---

18 انظر: الإمام الشافعي، الرسالة، القاهرة: المطبعة الأميرية، 1321 هـ.

– إمام الحرمين الجويني (ت 478 هـ)، البرهان، تحقيق: عبد العظيم الديب، قطر.

إن من معاني البيان بيان معنى الهيمنة بالقرآن المجيد على تراث النبوات -كلها- والتصديق عليه، ذلك التراث الذي تعرض للتحريف والتلاعب، حين خان الأحبار والربانيون -الذين استحفظوا ذلك التراث- أمانتهم، فحرفوا ما ائتمنوا عليه ونسوا حظاً مما ذكروا به، فكانت مهمة خاتم النبيين مهمة مزدوجة تشتمل على إخراج الأميين من الأمية ليصبحوا أهل كتاب وهو القرآن الكريم، وتبليغ أهل الكتاب كيفية هيمنة القرآن الكريم وتصديقه على الكتاب كله، في إعادة قراءة تراث الأنبياء والمرسلين بقراءة قرآنية، تنقل حقائق تلك النبوات وما جاء به أصحابها إلى البشرية كافة، فكان رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- بسيرته الكريمة، خير نموذج بياني في حفظ ذلك التراث عملياً، في تنزيل آيات القرآن الكريم في -مجال رسالات وسير الأنبياء- على الواقع الإنساني، حيث قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ. إِذْ قَالَ مُوسَى لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ (النمل: 6-7)، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: 120-123). ولذلك لم يكل الله -تعالى- حفظ كتابه الأخير إلا لذاته العلية: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ،﴾ (القيامة: 17-19) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ،﴾ (الحجر: 9) فكما لم يشرك الله تعالى أحدا في إنزاله، لم يشرك أحداً في حفظه، وتلاوته على نبيه الخاتم، وبيان محكم آياته للناس.

وبذلك توحدت "المرجعية البشرية" في هذا القرآن فهو الكتاب الخاتم الذي نزل على خاتم النبيين في البلد الحرام. وهيمنة القرآن الكريم وتصديقه مطلقان، فهو مهيمن على تراث النبيين كافة وعلى السنة المحمدية ومصدق عليه وعليها، والهيمنة على تراث النبوات تعني الحاكمية عليه، والتصديق عليه: يعني إزالة كل ما تعرض أو يتعرض له تراث الأنبياء من تحريف الغالبين، وانتحال المبطلين، وتأويلات الجاهلين والمغترين، وإعادة تقديمه صادقاً منقى من ذلك كله.

التزكية:

تزكية الناس بهذا القرآن: -تزكية نفوسهم وقلوبهم وعقولهم وحياتهم كلها نظماً وتشريعات وعلاقات ومعاملات وبذلك تتحقق المهام النبوية كلها: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129). ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة: 2)، ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران: 164). فالتزكية هي التي تنتج الإنسان الناسك الذي يتزيّن بالتقوى، والعالم الذي يعشق المعرفة، والفنان الذي يهذب مشاعر الناس ويرقّي أحاسيسهم. وإنسان التزكية هو ناتج التربية السليمة التي تحول المعرفة إلى إيمان، وتحفظ على الحياة قيمتها وعمرانها، ولو بالتعالي على أهوائها والتضحية بالنفس من أجل المقاصد الحاكمة العليا. وعليه فإن من أهم أهداف الإسلام تحقيق "إنسان التزكية" القادر على تحقيق التوحيد وإقامة العمران.

رابعاً :مفهوم الوحي:

إن تحديد مفهوم الوحي له أهمية كبرى في تحديد مفهوم السنة، ولذلك لا بد من تحري الدقة في تعريفه، لنتجاوز ذلك التساهل الذي سمح أن يُدرج تحت مفهوم الوحي كلُّ ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قرآن أو ما أطلق عليه من سنة فيما بعد، بقطع النظر عن تحديد الاختلافات بين القرآن من جهة، وهو الذي لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم فيه إلا اتباع قرآنه ووحيه وقراءته وتلاوته على الناس كما أنزل عليهم، فهو كلام الله المتعبد بتلاوته المتحدى بأقصر سورة منه المعجز للبشرية كلها، والسنّة من جهة أخرى، حيث إنّ بقية ما صدر عن رسول الله من أقوال وأفعال وتقريرات، يتفق الجميع بأنها صدرت عن اعتبارات مختلفة؛ ففي أفعاله ما هو جِبلّيّ طبيعي، وما هو تطبيق للقرآن الكريم وتوجيهاته، وما هو صادر وفقاً للوظائف التي كان يؤديها صلى الله عليه وسلم من إمامة وقضاء وإفتاء وتعليم وتوجيه وتشريع، ولا شك في أن بعض ذلك يُعدّ من قبيل النسبي المرتبط ببيئته عليه الصلاة والسلام، وبعضه يعد في دائرة الخصوصيات له

ولبعض الأصحاب؛ وبعضه تشريع. وما لم يجر هذا التمييز والفرز ويتم التخلص من الخلط فإن الجدل يبقى دائراً وموضع النزاع يبقي غير محرر ولا مفهوم.

وبعد أن ننتهي من تحديد الوحي في القرآن وفي السنة وفي علم التوحيد فإنا سنكون قد أوضحنا جانباً أساسياً من جوانب هذه الإشكالية، التي ينبغي أن تصحح المفاهيم الأخرى وفقاً لذلك المفهوم، كما في مفهوم السنة، وفي نفس المستوى نجد كثيراً من التعاريف اللغوية والاصطلاحية، ومن خلال تلك التعاريف وتحليلها علينا أن نحاول بيان حقيقته باعتباره مفهوماً له حقيقته الغيبية، التي استطاع الإسلام أن يعطيها من الوضوح والجلاء ما لم يعطها إياه أي تصور آخر، ومن ذلك يمكن تحديد موقع السنة من الوحي، مع طرح الإشكاليات التي نشأت نتيجة تراكمات تاريخية أدت إلى غبش الرؤية في موقع السنة من الوحي. ولذلك فلا بد من تحرير تعاريف الوحي لغوياً وقرآنياً وفي السنة وعند أهل الكلام، ليتمكن الباحث بعد ذلك من الغربلة والتمحيص في تلك القضايا بإذن الله.

قال الراغب الأصفهاني:[19] أصل الوحي الإشارة السريعة، وليضمن مفهومه السرعة قيل "أمر وحي"، وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة، وقد حمل على ذلك قوله تعالى عن زكريا: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ (مريم: 11)، فقد قيل: رمزَ، وقيل: فعل شيئاً عدّ واعتبر وحياً. وأما قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: 112) وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ... ﴾ (الأنعام: 121)، فذلك مفسر بالوسواس المشار إليه بقوله تعالى ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ. ﴾ (الناس: 4)

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ. وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن

19 المفردات، مرجع سابق، ص515

جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ.﴾ (الشورى: 51-52) ويقال للكلمة التي تلقى إلى أنبياء الله ورسله (وحي)، وذلك يحدث على أضرب عديدة:[20]

1. وذلك إما **برسول مشاهد** تُرى ذاته ويُسمع كلامه، كتبليغ جبريل-عليه السلام- للنبي في صورة معينة (عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. قالت عائشة ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً).[21]

2. وإما **بسماع كلام** من غير معاينة كسماع موسى كلام الله تعالى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى. ﴾ (طه: 13)

3. وإما **بتسخير** نحو قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ.﴾ (النحل: 68) ويتضمن الوحي ما يختص بالملائكة: كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلآئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ.﴾ (الأنفال: 12) فذلك وحي لهم بواسطة اللوح والقلم فيما قيل، وقوله تعالى: ﴿وأوحي في كل سماء أمرها.. ﴾ فإن كان الوحي إلى أهل السماء فقط فالموحى اليهم محذوف ذكره، كأنه قال أوحى إلى الملائكة لان أهل السماء هم الملائكة، ويكون كقوله ﴿إذ يوحي ربك إلى الملائكة...﴾ وإن كان الموحي إليه هي السماوات فذلك تسخير عند من يجعل السماء غير حي، ونطق عند

---

[20] إن محاولة الراغب الأصفهاني الفذة في أهم كتبه القليلة (مفردات غريب القرآن) لبيان مفهوم "الوحي" قرآنياً تعد مفتاحاً معرفياً هاماً في عملية دراسة المفاهيم القرآنية، وذلك أن ما اتبعه الراغب الأصفهاني في دقة تتبع المفهوم ووضوحه، وذلك في بناء لبنات المفاهيم القرآنية ابتداء من تتبع المعنى اللغوي، الذي هو الأساس والمنطلق باتجاه بناء المفاهيم والمصطلحات بناء سليماً، ولقد حاول الراغب إقامة المفهوم، ثم تتبع استعمالات القرآن الكريم الذي لا يضل من اتبعه، وهذا الذي توصل الراغب إليه من أفضل وأهم ما ذكر في مفهوم "الوحي" وفي معانيه المتعددة التي اشتمل عليها بالنسبة للمؤمنين به، إذ هو ظاهرة غيبية. فالوحي الإلهي أمر غيبي، والله -تعالى- يصطفي من يشاء لتلقي وحيه من عباده، ويصطفي ملكا يتلقى وحيه عنه وينزل به إلى رسله وأنبيائه ليبلغوه بدورهم إلى أممهم، وهذا الملك قد يأتي الرسول بهيئته الملائكية وقد يأتيه بهيئة أخرى. والمؤمنون يؤمنون بأن الملك يأتي الرسول والنبي واقعاً حقيقة لا تخيلا، ويقظة لا مناماً.

[21] صحيح البخاري، باب بدء الوحي، حديث رقم 2

من جعله حيّاً، وقوله ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ فقريب من الأول وقوله تعالى ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى اليك وحيه﴾ فحث على التثبت في الاستماع وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقنه.

4. أو **بمنام** كما في حديث عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة."[22]

5. وإما **بإلهام** نحو: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ..﴾ (القصص: 7)، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى. أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ.﴾ (طه: 38-39)

والإلهام: في اللغة: اللهم من الابتلاع، ولهم الشيء لهماً والتهمه: أي ابتلعه بمرة. واللهم: العظيم، ورجل لهم كثير العطاء. وألهمه الله خيراً أي لقنه إياه. والإلهام: ما يلقى في الروع،[23] بطريق الفيض ويختص بما هو من جهة الله والملأ الأعلى، ويقال: إيقاع شئ في القلب يطمئن له الصدر يخص الله به بعض اصفيائه، واستلهمه إياه سأله أن يلهمه قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس: 8) وكقوله صلى الله عليه وسلم: "إنّ روح القدس نفث في روعي.."[24] وعرفه ابن سينا: بأنه ما يلقيه العقل الفعال في نفس الإنسان المؤيدة بشدة الصفاء، وشدة الاتصال بالمبادئ العقلية.[25] وعرف صاحب جمع الجوامع الإلهام بأنه: إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر يخص به الله تعالى بعض أصفيائه، وهو ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوماً بخواطره، خلافاً لبعض الصوفية في قوله: أنه حجة في حقه، أما المعصوم كالنبي صلى الله عليه وسلم

---

22 صحيح البخاري، باب التعبير، حديث: 6472

23 ابن منظور، لسان العرب، 554/12 وما بعدها.
- الفيروزبادي، القاموس المحيط، بيروت: دار الكتب العلمية، ط4، 1995م، 151/4
- الزبيدي، محمد مرتضى. تاج العروس، بيروت: دار مكتبة الحياة، 68/9 وما بعدها.
- المفردات، مرجع سابق، ص455

24 المرجع السابق، ص455

25 صليبا، جميل. المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1978م، 131/1

فهو حجة في حقه وحق غيره إذا تعلق بهم كالوحي.[26] أما عند الصوفية: فالإلهام هو: النفث في الروع، والإيقاع في القلب من العلم غير القائم على الاستدلال والنظر.[27]

إن النبوة أمر غيبي، وجزء من أمر ربي، فإذا أريد تقريب صورة إدراكها إلى الأذهان على المستوى التعليمي فلا ينبغي أن تزال عنها صفة الغيب، بل لابد من الإيمان بها بصفتها الحقيقية الغيبية التي يكرسها التحدي والإعجاز والعصمة. يقول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد عن معنى الوحي: "وقد عرفوه شرعاً أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه، أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى بواسطة أو بغير واسطة، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت. ويفرق بينه وبين الإلهام، بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب من غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور." وقد بين ابن تيمية شروط الإلهام كمنهج للمعرفة بقوله: "إن الذين أنكروا كون الإلهام طريقاً للمعرفة على الإطلاق أخطأوا، كما أخطأ من جعله طريقاً شرعياً على الإطلاق، وإنما يكون فيما إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحاً وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين، مع حسن قصده، وعمارته بالتقوى، فإلهامه دليل في حقه"؛[28] أي لا يفرض على غيره إلا بدليل عقلي يعضده وبذلك يكون الإلهام مما يستأنس به طالما كان في دائرة ما أحله الله في شرعه ورسوله، أما إن كان لا أصل له في الشريعة أو مما حرمه الله فهو مردود مطلقاً.

يقول محمد رشيد رضا[29] عن الفرق بين الإلهام والوحي الإلهي: أن ما يسميه بعضهم بالوحي النفسي، وهو الذي فسره الفلاسفة (الإلهام الفائض من استعداد النفس العالية)، فصار الخلاف بيننا وبين هؤلاء في كون الوحي الشرعي من خارج نفس النبي نازلاً عليها من السماء كما نعتقد، لا من داخلها فائضاً منها كما يظنون، وفي وجود ملك روحاني نزل من عند الله على النبيّ صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ

26 جمع الجوامع، ج2، ص398

27 الحنفي، عبد المنعم. معجم مصطلحات الصوفية، بيروت: دار السيرة، ط1، 1400هـ، ص23

28 ابن تيمية، الفتاوى، مرجع سابق، 10

29 رضا، محمد رشيد. الوحي المحمدي، بيروت: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط2، 1352هـ، ص81 وما بعدها.

لَتنزيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ.﴾ (الشعراء: 192-195)

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزَلَ اللهُ.. ﴾ (الأنعام: 93)، فذلك من يدعي شيئا من أنواع ما ذكرناه من الوحي أي نوع ادعاه من غير أن يكون قد حصل له.

أما موضوعات الوحي العام في رسالات الأنبياء فهي عديدة منها التعريف بوحدانية الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (الأنبياء: 25) فهذا الوحي عام في جميع أنواعه، وذلك أن معرفة وحدانية الله تعالى ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختص بأولي العزم من الرسل، بل يعرف ذلك بالعقل والإلهام كما يعرف بالسمع، فإذاً القصد التنبيه أنه من المحال أن يكون رسول لا يعرف وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته.

ومنها التأكيد على بشرية الأنبياء وصدق رسالاتهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً.﴾ (الكهف: 110)

وكذلك فإن من هذه الموضوعات أمر الأنبياء بالالتزام بما يوحي إليهم واتباعه، قال تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ.﴾ (الأنعام: 106) وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ. ﴾ (الزمر: 65)

خامساً :العلاقة بين الوحي والسنة :

تساؤلات منهجية:

الأول: هل السنة المستقلة عن القرآن والتي لا نجد لها أصلاً مباشراً فيه، أو كانت من أمور المصالح والحروب، تعد وحياً واجب التطبيق بدون دليل مستقل، أو أنها ليست كذلك لاحتمالات الخصوصية، وكون الفعل إن كانت السنة فعلية صادراً عن طبع أو جبلة فقط جبلية طبيعية، أو كان بوصف النبي صلى الله عليه

وسلم إماماً أو قائداً أو نبياً أو قاضياً؟ فإن قيل: بأنها وحيّ يوحى فهل يعد التصحيح الموحى نسخاً كمثل قوله تعالى (عفا الله عنك لما أذنت لهم) وما موضع قضية اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر؟

الثاني: هل يعتبر كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير، سنة موحاة وحيّاً إلهياً إليه، أو هي صادرة إنشاءً وابتداءً وأصالة عنه، والوحي يوافق أو يعدل أو يغير على أساس أنه مأمور بالبيان، وأنه يقوم بأمور لا تدخل في دائرة السنة التشريعية، فيكون المستفاد منها (إباحة الأمر) أو بيان أنه غير داخل في المحظور؟ ولقد نشأ خلاف طويل بين الأصوليين حول الإباحة هل هي حكم شرعي أو حكم عقلي! ولم يخالفهم في ذلك إلا الكعبي على اعتبار الإباحة حكم عقلي لا شرعي، وأصر جمهرتهم على أن الإباحة حكم شرعي، وعدت خامس الأحكام التكليفية واجب، حرام، مندوب، مكروه، مباح، لهذا الغرض، قالوا إن الإباحة حكم شرعي لا عقلي.

الثالث: هل ما ذهب إليه جمهرة الأصوليين أن كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من فعل أو قول أو تقرير هو سنة، يعني أوحيت إليه من الله تعالى وحياً للتشريع أو لبيان التشريع ودون استثناء؟ أو أنه عليه الصلاة والسلام خول مهمة البيان أحياناً بما يوحي إليه غير القرآن أو أحياناً باجتهاده عليه الصلاة والسلام؛ ثم إن سكت الوحي علمنا أنها وحي، وإلا فللوحي سلطة التعديل والتغيير والنسخ كما حدث في آيات الأسرى، وسورة (عبس وتولى)، وقضية الظهار وقضية هدم الكعبة وما جاء في معاتبته في سورة التحريم وزواج زينب ونحوها؟

الرابع: كيف يجيب الأصوليون عن هذا التمييز بين تصرفات النبي صلى الله عليه وسلم، بوصفه إماماً، وبوصفه قاضياً، وبوصفه قائداً، وبوصفه نبياً، وما الدليل عليه؟ وكيف نضع الخطوط العريضة الفاصلة فيه؟ ولم لم يحدد الأصوليون السنن بوصف كل تصرف كما حدد الصحيح والحسن والضعيف ونحوه، مثل أن يقال أن المجموعة التي قالها صلى الله عليه وسلم في مجموعة البخاري أو غيره من المحدثين إنما قالها بوصفه إماماً، أو قاضياً أو غير ذلك حيث يساعد ذلك في تحديد عملية الفرز، وآنذاك سوف نعرف أن هذه السنن التي نحن مطالبون بالأخذ بها، هي السنن التي تعتبر وحياً وهي السنن التي لها أصول تشريعية في القرآن الكريم وما ليس

له أصل في الكتاب يمكن ركنه على أساس الاستفادة منه في مجالات أخرى كالحكمة أو التوجيه القابل للتطبيق، أو اعتبارات أخرى لكن ليس له الصفةُ التشريعية الموحاة.

الخامس: هل حدد الأصوليون السنن التشريعية وغير التشريعية؟ قد يقال إنهم حددوا ما يسمى بالمباحث المشتركة بين الكتاب والسنة، فكل مباحث اللغات اعتبرت مشتركة، ثم جاءوا إلى ما يختص بالقرآن الكريم، فتتبعوا بعض مباحث علوم القرآن ومنها القراءة الشاذة ونحوها، ثم جاءوا إلى السنة فأخذوا ما قاله المحدثون، ووقفوا عند المباحث التي كان لأئمتهم فيها مواقف فعدلوها في صالح مذاهبهم، وفي الباقي قبلوا تعريفاتهم في الصحيح والحسن والمشهور والمعلل والمدلس والمعنن والمعلل وغيره...

السادس: من ينشئ الحكم إنشاءً وابتداءً ومن يكشف عنه؟ فإن قلنا: إن إنشاء الحكم يأتي من الله تعالى، وأنه يتمثل بالقرآن الكريم وحده بناء على قوله تعالى ﴿إن الحكم إلا لله﴾ وعموم قوله تعالى ﴿له الحكم وإليه ترجعون﴾، إلى غير ذلك من آيات مماثلة، فيصبح القرآن بالإطلاق منشئاً، فهو قد يكشف عن الحكم أو يكل بيانه إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فيكون قوله ﴿إن الحكم إلا لله﴾ صيغة حصر نصرفها للإنشاء، ويصبح القرآن الكريم هو المصدر الذي ينشأ فيه الحكم، ولكن من يكشف لنا عن الحكم أو يبيّنه هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: (وأقيموا الصلاة) والرسول صلى الله عليه وسلم يبين تفصيلاته، فهل تصبح السنة كشفاً أو إنشاءً؟ قال تعال: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) فالحاكمية هنا أصبحت لله الذي جعلها في القرآن، وأما موقف النبي صلى الله عليه وسلم (أن أحكم بينهم بما أنزل الله..) وفي آية أخرى (بما آراك الله..) ففي حالة الإنشاء ينسب الله تعالى الحكم إلى نفسه، أما بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول (بما أراك الله) فتبقى سلطة الحكم لله تعالى. وهنا نريد أن نعرف موقف الأصوليين لماذا اعتبروا السنة وحياً، هل باعتبارها منشئاً للحكم أو كاشفاً عنه؟

وثمّة مؤشرات مهمة في أزمة منهج تحديد علاقة مفهومي الوحي والسنة؛ وقد نشأت الإشكالية عند الأصوليين عندما سووا بين القرآن والسنة تسوية كاملة، إلا بفرقين: كون القرآن معجزاً ومتعبداً به، ولذلك لا بد من مراجعة سريعة لتطورات تلك القضية. فقد تكون من أوائل المحاولات المنهجية في هذا الموضوع محاولة عمر بن عبد العزيز ومن معه من الفقهاء، حيث لاحظوا اختلاف المرجعية، فحاولوا اتخاذ السنة بديلاً عن

المذاهب الفقهية المختلفة وغلب على ظنهم أنهم بذلك يحققون الاتفاق بين المسلمين؛ إذا اتفق المسلمون على كون السنة فقهاً، فالقضاء على الخلافات يكون بتوحيد المرجعية، ويتم بتوسيع مجال النص وتضييق مجال الاجتهاد حيث يجعل المرجعية للنص وللرسول بدلاً من المجتهدين، لكن هذا الحل أظهر إشكاليات أخرى؛ ذلك أنهم اضطروا إلى أنْ يقولوا إنّ القرآن فيه نسخ وفيه تعارض، وتجرأ البعض بأن يقول: يجوز رواية القرآن بالمعنى. والحال أنه نص معجز، وكل حرف فيه نزل من عند الله، فتساهلوا في ذلك، وتساهلوا بالقول بنسخ الكتاب بالسنة واضطروا للخوض في ذلك –كله– نتيجة التسوية التي أقاموها بينهما. ولو لم يسووا بين المصدرين لما أمكن القول إن آية سورة النور نسختها السنة بالنسبة للمحصن لتبقى نصاً في البكر فقط مع أن الألف واللام في هذه الصيغة من صيغ العموم:

وهكذا لم يعد هناك منهج صارم ضابط للفهم عن الله —تعالى– وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، وسادت تصورات ذاتية لدى كثير من الفقهاء. فالمحدثون أنفسهم حين اصطرعوا مع أهل الرأي وأهل الحديث، أفرز ذلك سلطتين: سلطة تتبنى الرأي، وسلطة أهل الحديث التي تحاول أن تلغي تدخل الرأي لصالح الحديث، حتى لو لم يتفق على صحته أو قوته، ومن الصعب القول بوجود أحاديث صحيحة عند كل إمام كافية لتجيب عن كل هذه التساؤلات. فكون الأحاديث نسبية وكونها مرتبطة بعصر النبي صلى الله عليه وسلم في جملتها تطبيقاً أمر ممكن وتكون الأحاديث المطلقة تلك المتصلة بالقرآن الكريم اتصالاً مباشراً.

ولذلك فلا بد من تحديد مفهوم الوحي بدقة، لأنّ التساهل فيه هو الذي فتح علينا أبواب الشك، وتحديده سوف يغلقها بإذن الله، كما حدث في الفصل التام بين صفات الله سبحانه، وصفات عباده، فسدت أبواب الشك، وعلى هذا فتبدأ عمليات التحديد بما يلي:

– **تأكيد القرآن على بشرية النبي** صلى الله عليه وسلم يحمل معنىً هاماً مضافاً إلى المعاني المبينة في هذا المجال، وهي أنه أراد سبحانه أن يضع فاصلاً بين الله تعالى وبين نبيه صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا

يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ (الكهف: 110) وقد أكد صلى الله عليه وسلم هذا في قوله (إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في مكة..).[30]

– **تأكيد الفصل بين القرآن الكريم والسنة النبوية** فليست السنة بحاجة إلى العلو والارتفاع إلى القرآن أو العكس، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. قُل لَّوْ شَاء اللّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يونس: 15)؛ فالعلاقة بينهما علاقة تكاملية تحمل معاني الشمولية والمرونة باعتبار القرآن النص المنشئ للأحكام والتشريعات والسنة مبينة شارحة له مطبقة لتشريعاته في أرض الواقع الإنساني وهذا النوع من العلاقة يفتح ويسمح بالتكاملية بين الاثنين دون خلط أو تشويش.

تفصيل الفروق بين الكتاب والسنة وعدم حصرها في الإعجاز والتعبد:

إن الخلط في الأدوار أدى إلى الخلط بالمرتبة أو المكانة مما ساعد على إلغاء الخط الفاصل بين القرآن والسنة، فلا بد من توضيح الفروق الكبيرة والمهمة بين القرآن والسنة، فالرسول صلى الله عليه وسلم أمر بالاتباع والتلاوة والقراءة وكما أنزلت عليه، فكان متشدداً في النقل والتلاوة بدقة كما أنزلت، ولقد عرض عليه القرآن الكريم مرتين في آخر سنة من حياته، وكان يحرص على أن يكون كتبة الوحي قريبين منه لكتابة ما أنزل إليه مباشرة. أما في كتابة سنته فقد كان الأمر محل إشكال، إذ رخص للبعض من الصحابة لخصوصية معينة، ولم يحرص الصحابة أو يشعروا أنهم مأمورون بنقل السنة وكتابتها كما كان الموقف مع القرآن الكريم، فلم يحرصوا على نقل الأحاديث بذات الدقة التي نقل فيها القرآن، بالإضافة إلى أنها رويت في جملتها بالمعنى؛ بدليل أن الأئمة إلى الآن مختلفون في أحكام بعض الأفعال بالرغم من تكرارها يومياً من يوم أن شرعت، مثل الآذان وبعض أفعال الصلاة ونحوها؛ ألا يعني هذا أن السنة ليست نصاً موازياً للقرآن وإنما هي بيان تدور حوله حيثما دار؟!

---

[30] ابن ماجه، كتاب الأطعمة، 3303

اجتهاد النبي:[31] إذا أدرج النبي صلى الله عليه وسلم مع المجتهدين فكيف نفرق بين دوره كمجتهد في قضية ما وبين دوره باعتباره ناقلاً لوحي موحى إليه؟[32] وكيف تفسر أقواله:

– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كنت قد نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ النَّبِيذِ إِلا فِي سِقَاءٍ فَاشْرَبُوا فِي الأَسْقِيَةِ كُلِّهَا وَلا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا؛"[33] وعَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهَا قَالَتْ: "سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ لَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ أَوْ قَالَ بِكُفْرٍ لأَنْفَقْتُ كَنْزَ الْكَعْبَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَجَعَلْتُ بَابَهَا بِالأَرْضِ وَلأَدْخَلْتُ فِيهَا مِنْ الْحِجْرِ."[34] هذه قضية تعبدية تتعلق بالطواف. فماذا نقول بمثل هذه الأحاديث أيهما وحي، الأول أو الثاني؟

ومثل ذلك قضية قتل ابن سلول حين قال عليه الصلاة والسلام: "لا أريد أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه" ثم يحاول عليه الصلاة والسلام أن يستغفر ويصلي عليه. عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ تُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ قَالَ إِنَّهُ مُنَافِقٌ قَالَ فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون.﴾[35]

---

[31] الرازي، فخر الدين. المحصول في علم الأصول، مرجع سابق، ج6، ص7 وما بعدها.

[32] لقد بين القرافي (ت 682) الفرق في بحثه المهم الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، ولقد حقق هذا الكتاب عدد من العلماء ونشر عدة مرات منها: القاهرة: طبعة الأزهر تحقيق: أبي بكر عبد الرزاق، المكتب الثقافي للنشر والتوزيع، 1989 م.

[33] رواه مسلم، رقم الحديث: 3651

[34] رواه مسلم، رقم الحديث 2369

[35] رواه البخاري: رقم الحديث، 4302

(التوبة: 84) فكيف يكون الاثنان وحياً؟ قد يقولون: أنه فوض عليه الصلاة والسلام في الحروب والمصالح، فنقول: صفوا لنا الحد الفاصل بين ما هو وحي وما ليس بوحي، وبين ما هو مفوض فيه وما هو غير ذلك.

وهكذا فقد أضيف إلى مفهوم الوحي تعقيدات كثيرة، أخرجت هذا المفهوم من وضوحه وبيان معانيه القرآنية إلى التعقيد، فكثير من الأمم والطوائف جحدوا بالوحي والنبوة وإن استيقنتها قلوبهم، والمسلمون خاصة المعنيون بالفلسفة من علمائهم، ذهبوا في محاولة الولوج إلى معاني المفهوم مذاهب شتى انطلاقا من ضرورة إيجاد توافق بين النقل والعقل. ولذلك فإننا نرى ضرورة الإلمام ببعض ما ذكروه مما أعتبر "نظرية لهم في النبوة" أو "نظرية في الوحي" وعالم الاتصال بين السماء والأرض، كل ذلك لنؤكد على أهمية الكشف عن مضامين تلك المفاهيم في محاولة للعودة إلى معانيها القرآنية.

سادساً :منكرو الوحي والنبوة :

لقد اغتر بعض البشر بعقولهم، وظنوا أنها قادرة على أن تغنيهم بمعارفها وطاقاتها عن "الوحي الإلهي"، أليست عقول البشر قادرة على التمييز بين النافع والضار؟ أليست قادرة على إدراك حسن الأشياء وقبحها؟ أليست قادرة على تحصيل السعادتين؟ وتحقيق الحسنيين لصاحبها؟ فلم لا يعطى الإنسان حق الاستغناء بعقله عن الوحي والنبوة؟ وبذلك يكون الإنسان مركز الكون، ويكون عقله مركز المركز! إلى ذلك ذهب البراهمة من الهنود[36] وتأثر بما ذهبوا إليه بعضهم نحو محمد بن زكريا الرازي –الطبيب– وابن الراوندي، فزعما أن الإنسان يمكن أن يستغني بعقله عن الوحي والنبوة، وبذلك أنكرا كون الوحي مصدرا للمعرفة، والنبوة مصدرا لتعليم الكتاب والحكمة.

وإذا كانت البشرية قد شهدت أولئك الذين أنكروا وجود حاجة إلى الوحي، فهناك من بالغوا وتوسعوا في اعتبار الوحي مصدراً لسائر أنواع المعارف، ومنها أمور الصناعة والزراعة والحرف والفنون والأدوية والعقاقير وغيرها، بحجة أن في كل شيء من هذه الأشياء جانب خير وجانب شر، ومهمة الأنبياء الحث على الخير،

---

36 يمكن مراجعة تفاصيل مذهب البراهمة في رفض النبوات ونفي الوحي في: الباقلاني، التمهيد، بيروت: المكتبة الشرقية، 1957م، الباب التاسع، ص105 وما بعدها.

– الجويني، الإرشاد، ص302 وما بعدها.

– مدكور، إبراهيم. الفلسفة الإسلامية: منهج وتطبيق، 1947م، ص94 وما بعدها.

والنهي عن الشر، وحماية الناس منه،[37] ومن هنا اتجه الكعبي نحو إنكار المباح.[38] وإذا كان كثير من المتكلمين المسلمين قد أدخلوا في نطاق النبوة ما هو خارج عن نطاقها، فقد ألح الفلاسفة الإسلاميون كالفارابي وابن سينا في إبراز وظيفة النبي السياسية والاجتماعية. ويتبع الفارابي في ذلك من عرفوا ب "فلاسفة الإسلام" في الشرق والغرب.[39] فالفارابي–وإن لم يهمل الجانب الأخروي– إلا أن اهتمامه قد انصب على بيان حاجة المجتمع والمدينة الفاضلة، إلى مشرّع ينظم علاقات الناس الدنيوية، ويسمو بالأخلاق، وهذا المشرّع هو "النبي". وبذلك قرب النبوة والنبي–في ظنه– إلى الناس وصارا معقولين وتابعه على ذلك ابن سينا أي في ضرورة وجود "المشرع" النبي، لكنه لم يقل بالمدينة الفاضلة، وتوسع في الجانب الأخروي.[40]

وتعد "نظرية الفيض" التي جاء الفارابي بها محاولة منه لمقاربة الفكر الفلسفي، لكن "نظرية الفيض" هذه تحول "الوحي" إلى ضرب من الخيال، والنبي إلى رجل ذي مخيلة قوية متينة لديها من الاستعدادات ما يجعلها قادرة على الاتصال بهذا الذي سماه "بالعقل الفعال"، الذي يفيض عليها من فاعليته ما يجعلها قادرة على إدراك الغيب؛ فالمخيلة البشرية –في نظر الفارابي– لديها قدرة على حفظ صور المحسوسات الخارجية، التي تنقل الحواس الإنسانية صورها إلى المخيلة لحفظها، فالمنظر الذي تراه أو الشخص الذي تقابله تصوره حواسك وتودع صورته في مخيلتك، حتى إذا التقيته مرة أخرى تذكرته باستدعاء الصورة المخزونة في مخيلتك، وهذه إلى الحس المشترك، وعندئذ تنفعل العين بها فترتسم فيها، ثم يتولد عما ارتسم في العين رسوم تنتشر في الهواء المضيء والمتصل بشعاع البصر. وينتج عن هذا أن تتأثر العين من جديد بهذه الصور المنتشرة في الهواء،

---

37 فراجع الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، 5ج، 1مج، القاهرة: الجمالي والخانجي، 1928، (1/73-72) والأرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد للجويني ص304، والاقتصاد في الاعتقاد، الغزالي، القاهرة: مكتبة ومطبعة محمود صبيح، 1971، ص89 والمنقذ من الضلال، الغزالي، بيروت: مؤسسة ناصر للثقافة، 1980، ص97، وتبصرة الأدلة للنسفي، وتجريد الأعتقاد للطوسي، صيدا: مطبعة العرفان، 1958، ص193، والمحصول في علم أصول الفقه، الرازي، 3ج، بيروت: دار الرسالة، 1995، ص156-157.

38 راجع نظرية النبوة عند الفارابي في كتاب: "الفلسفة الإسلامية" للدكتور مدكور، فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية، ص549 – الفخر الرازي، المحصول في علم الأصول، مرجع سابق.

39 المرجع السابق.

40 راجع: الإشارات والتنبيهات، ابن سينا، القاهرة: المطبعة الخيرية، 1907، (105/2) ورسالة إثبات النبوات ضمن كتاب رسائل في الحكمة والطبيعيات، ابن سينا، استانبول: مطبعة الجوائب، 1880، ص124، والشفاء بالألهيات، ابن سينا، طهران، 1889، وفخر الدين الرازي وأراءه الكلامية ص549

فيرى الإنسان أشخاصاً في الخارج لا وجود حقيقياً لهم، لأنهم ليسوا في الحقيقة أكثر من صور نابعة من مخيلته.

وابن سينا قد حذا حذو الفارابي في "نظرية الفيض" وفي النتائج التي ترتبت عليها: من تجويز رؤية النبي لصور الملائكة بعينيه ومخاطبته لها، وتلقيه الوحي عنها، وتكون صور هذه الملائكة التي اعتقدها قد شكلتها مخيلته، من غير أن يكون لها وجود فعليّ في الخارج.[41] والمختارون من البشر هم أولئك الذين تتساوى عندهم أوقات اليقظة وأوقات النوم، فتصعد مخيلتهم إلى "العقل الفعال" في النهار وفي حال اليقظة، كما تصعد إليه في الليل وفي حالة النوم، وهؤلاء هم الأنبياء، وما تراه مخيلاتهم في حال اليقظة هو "الوحي."[42] والذي حمل الفارابي والفلاسفة على هذا استبعاد العقول المتفلسفة للغيب بمفهومه الديني، فهم يعملون على تقريبه إلى العقليات ليكون الإيمان به مقبولاً ومعقولاً فلسفياً، وممكناً ولا يخرج على المبادئ المنطقية المقررة لديهم. وأما السبب الآخر فهو أن الناس إذا تساووا في استجماع الشروط، وارتفاع الموانع، وسلامة الآلات فينبغي أن يتساووا في إدراك المدركات، إذ لا يعقل أن يختص بهذا الإدراك واحد من دون الآخرين مع كل ما ذكرنا.[43]

أما ابن رشد فقد كان أقرب إلى الدقة والوضوح في إدراكه لمفهوم النبوة في الإسلام، حين أوضح أن التشريعات التي تفضي إلى سعادة الناس في الدنيا والآخرة لا تكون إلا بعد معرفة الله، وجوهر النفس الإنسانية، وأسباب سعادتها وشقائها. وبما إن الناس يجهلون هذه الأشياء أو على الأقل لا يعرفونها معرفة حقة، وجب أن تكون الشرائع عن طريق الوحي؛ والإتيان بهذه الشرائع هي ميزة النبوة والغرض الأساسي منها.[44]

---

41 ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، 863/2. وابن سينا، أحوال النفس، القاهرة: عيسى البابي الحلبي، د.ت.، ص114، مدكور: الفلسفة الإسلامية، ص124-128

42 أنظر: الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، بيروت: المطبعة الكاثوليكية، 1959، ص68-76

- مدكور، الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص86-91-121
- قاسم، محمود. الفيلسوف المفترى عليه: ابن رشد، ص138-139

43 ابن سينا، المباحث المشرقية، 419/2

44 ابن رشد، أبو الوليد. مناهج الأدلة في عقائد الملة، القاهرة: مكتبة الأنكلو المصرية، 1964، ص215 وما بعدها.

- قاسم، محمود. الفيلسوف المفترى عليه: ابن رشد، ص138
- فخر الدين الرازي وآراؤه الكلامية، ص550

وقد حمل ابن تيمية في كتابه "النبوات" وفي الفتاوى، على مذهب الفلاسفة من المسلمين في تفسيرهم للوحي والنبوة، حيث حاولوا مقاربة اتجاه الفلاسفة الآخرين في "المفهومين" الوحي والنبوة" ومما قاله: يقولون: (أي الفارابي وابن سينا) هذا القرآن كلام الله، وهذا الذي جاءت به الرسل كلام الله، ولكن المعنى (أي لديهم) أنه "فاض" على نفس النبي صلى الله عليه وسلم من العقل الفعال، وربما قالوا: إن العقل الفعال هو جبريل –عليه السلام– الذي ليس على الغيب بضنين أي بخيل، لأنه فياض ويقولون: إن الله كلم موسى من سماء عقله...وغيرها وإنما هو خلط وتخبط."[45]

لقد آمن سلف هذه الأمة بالوحي والنبوة القائمة عليه باعتباره جزءا من الإيمان بالغيب الذي تلقوه بالقبول بعد التحدي والإعجاز، وبثبوت العجز الإنساني عن الإتيان بمثل القرآن المجيد أو بعشر سور أو بسورة واحدة، ولم يشعروا آنذاك –أنهم بحاجة إلى تفسير الوحي أو إعادة تقديمه بشكل يتقبله العقل الفلسفي،[46] وربما العقل التجريبي في أيامنا هذه.

سابعاً :آيات الأنبياء أم معجزاتهم؟

ثمة دلالات منهجية في قضية تأكيد مفهوم الآية في المصطلح القرآني؛ فعملية الخلط بين المفاهيم القرآنية مع مصطلحات بشرية غير خاضعة لنفس المنظومة لها خطورتها في التعامل مع المفهوم القرآني، فطبقاً لصفة الإطلاق التي تتمتع بها هذه المفاهيم والتي تستمدها من مصدرها (الله)، فإن دخول أي مفهوم نابع من غير مصدرها، يكون محملاً بمسلمات تختلف عن مسلماتها أمر فيه تفتيت لهذه المفاهيم وتلبيس لمعانيها بل وبتر لها. فمجرد إحلال مفهوم غريب عنها محل واحد منها، أو غرس مفهوم من غير ذاتها، يفقد هذه المنظومة أبعادها المتكاملة، وينشئ وضعاً لا يعبر عن محتوى المنظومة. وهذا ما ظهر في موضوع المعجزة والآية، فعندما استبدل علماء الكلام والفلاسفة المسلمون المفهوم القرآني (آيات الأنبياء) بمصطلح (معجزات الأنبياء) أدى هذا إلى استدعاء موضوعات أخرى تخالف منحى وغايات ومقاصد القرآن الكريم من مفهوم (آية) التي تستبطن معاني الارتقاء بالبشر إلى مستوى التجريد، في دراسة وربط آيات الكون وسننه مع آيات

---

45 ابن تيمية، الفتاوى، المجلد الثاني عشر، و23، 24، 29، 31

46 مدكور، الفلسفة الإسلامية، مرجع سابق، ص92–93

كتاب الله تعالى، وبذلك تتحقق معاني خاتمية النبوة والرسالات وآياتها، حيث يصبح الإنسان المستخلف قادراً على الربط بين الآيات الحسية الكونية والمعنوية القرآنية من غير حضور نبوي مباشر.

فلم يستخدم القرآن الكريم لفظة معجزة إنما الكلاميون هم أول من اصطلح لفظة معجزة لاختلاف آرائهم حول حقيقتها وشروطها. وقد تعرض القاضي الباقلاني[47] لذلك وهو شيخ متكلمي الأشاعرة، لأن في استخدام مصطلح المعجزة بديلاً أو مرادفاً لمفهوم (آية) تحول في منحى المنهج الفكري الإنساني في التعامل مع القضية الكلية إلى مستوى آخر تماماً. فقد استدعى هذا ربط المعجزة بالسحر، بدلاً من ربط آيات الأنبياء بآيات الكون وآيات القرآن الكريم، مما أدى إلى هبوط المستوى الإنساني لا ارتقائه.

إن الخلط بين آية النبي صلى الله عليه وسلم وهي القرآن الكريم، ومعجزات موسى وعيسى وغيرهما من النبيين تعتبر من المشكلات المنهجية الخطيرة، فمعجزات السابقين خاصة سيدنا موسى وعيسى معجزات حسية دلت على توقيت الرسالة، وقد أخضع الله سبحانه وتعالى هذه المعجزات لنوع من الارتباط بين التكذيب بها بعد أن يطلبها القوم ويسعون إليها، وبين هلاك تلك الأمم، وهي بحد ذاتها تخويف: (وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً). في حين أن القرآن الكريم كان بشيراً ونذيراً وليس مخوفاً بحيث يشل الطاقات العقلية البشرية، كما أن نزول المعجزات والآيات التسع على موسى وآيات عيسى كذلك ارتبطت بتشديد الشريعة على الناس وهذا بخلاف الشريعة الخاتمة شريعة التخفيف والرحمة.

ولذلك فإنّ عدم الربط بين نزول المعجزات التي طلبها بنو إسرائيل على موسى وعيسى ومعجزة القرآن من المؤشرات المنهجية، حيث كان التشديد في التشريع، وإخضاع بني إسرائيل في المرحلة الموسوية إلى الحاكمية الإلهية، كان بديلاً عن عذاب الاستئصال. ومن هنا كان من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً، فلا بد من قتله ولا يمكن أن ينتقل إلى شئ آخر كالعفو أو الدية مثلاً، وقد نبه القرآن الكريم المسلمين إلى ذلك فقال: ﴿أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل.﴾ (البقرة: 108) ولذلك فإن الله سبحانه وتعالى نص على منع الآيات الحسية عن هذه الأمة، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ

---

47 الباقلاني، التمهيد، مرجع سابق.

إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي القُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ (الإسراء: 59). وحين تحداهم بالقرآن ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً. وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً﴾ (الإسراء: 88-89) طالبوه لسخف عقولهم بما هو دون ذلك بكثير: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلآئِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَراً رَّسُولاً. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً﴾ (الإسراء: 90-94).

وهكذا تتضافر الآيات القرآنية على قرع أسماعهم بالحجج البالغات لعدم إعطائهم فرصة الانصراف عن القرآن الكريم باعتباره أكبر الآيات وأعظمها وأهمها، وأنه لم يؤت أي نبي أو رسول آية في مستواه أو مثله. ومع ذلك فلأن الناس سبقت إليهم روايات استقرت في قلوبهم وعقولهم، وظنوا أن عدم نسبة معجزات وخوارق حسية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تقليل من شأنه. مع أنّ تلك الآيات المعجزات لم تمنع بني إسرائيل من عبادة العجل الذهبي بمجرد عبورهم البحر الأحمر، وذلك لأن تلك المعجزات كانت مشاهدات حسية اقتصر أثرها عن وقتها المباشر، ولم تخاطب عقولهم وقلوبهم. كل هذا أدى بالبعض إلى أن ينسب معجزات حسية إلى النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ويؤكد عليها ويشغل الناس بها عن القرآن الكريم، ويضع رسالة القرآن البرهانية والعقلية المخاطبة للبشرية كلها، من طورها العقلي المرتقى وفي سائر أطوارها العلمية المتقدمة بحيث يجعلها مساوية لرسالات خاصة بأقوام أو شعوب معينين، فامتلأ العقل المسلم بتلك الروايات، وحاول التوفيق بينها وبين هذه الآيات الصريحة القاطعة التي لا تحتمل تأويلاً بأن آية هذه الرسالة إنما هي القرآن، والقرآن وحده، وكل ما روى أو نسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم لابد أن يخضع للقرآن ويهيمن القرآن الكريم عليه، وإلا فإن العقل المسلم يتحول إلى الخرافة ونحوها. ومن هنا كان موقف القرآن صارماً، ولذلك لابد أن يكون موقف علماء الأمة في هذه القضية في صف القرآن المجيد اقتداءً بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة:

مثَّل الأنبياءُ في حياة البشر قيادات هداية، وبناة وعي ورشد، فكأن الكون كله بيت واسع هيئ لسكنى الإنسان. والأنبياء -كل منهم بتجاربه الخاصة مع قومه في إطار زمانه ومكانه- يضع على هذا الجزء من البناء الذي يمثل غرفة القيادة والهداية شيئاً، ويسد في هذا البيت الفسيح ثغرة، ويعمر جانبا من جوانبه بقومه أو أتباعه، ثم تختم الرسالات والتجارب النبوية عبر العصور بخاتم النبيين عليه وعليهم الصلاة والسلام، ليكون للعالمين -كلهم- نذيراً، فيكتمل بناء البيت على يديه، ويتكامل عدد ساكنيه، ويتم مفهوم خلافة الإنسان بنوعه الإنساني وبإنسانيّته في الأرض بجملتها، ذلك لأنّ النبوات تدرجت مع نمو البشر، ورافقت في تصاعدها مسيرة العقل البشري، تهديه وترشده بقدر طاقته واحتماله ونموه. وقد أعان الله تعالى الإنسان على أن يتعلم الأسماء ليستطيع تصور الجزئيات وإدراكها، وليتمكن بعد ذلك من الربط بينها، وقد يدرك في مرحلة تالية تأثير تلك المفردات في دوائرها وأطرها، ولكن لا يستطيع أن يجمع بينها، أو يربطها بأصولها ويكتشف علاقاتها دون هداية الله له، ولذلك كان الإنسان كلما طال عليه الأمد ونسي هداية الله مال إلى عبادة تلك المفردات أو الظواهر -كما أشرنا- إلا أن تأتيه هداية الله تعالى من جديد عن طريق الأنبياء تنقذه وتهديه، وقصة ابني آدم، ثم نموذج إبراهيم عليه الصلاة والسلام في مرحلة البحث منبهات على هذه الحالة.[48]

ولقد شكل رصيد التجارب الإنسانية المتعددة المتنوعة المشرب بتراث النبوات خبرة تاريخية ساعدت على تكوين وتطوير العقل الإنساني وتمكينه من تلبية حاجاته الحياتية في ظروفه المتغيرة. وقد هيأ ذلك كله -فيما بعد- لقبول مبدأ تلقي الشرعة والمنهاج، فقد كانت أشد العقبات أمام الإنسان لتحقيق مفهوم "الخلافة"، عدم قدرته على الحصول -بهداية عقله فقط- على المنهج الموضوعي الكامل من داخله، سواء أكان منهجا لتفكيره أو لمعرفته، أو لتحديد علاقاته بالكون والحياة وخالقه وخالقهما تحديداً دقيقاً، أو كان لسوى ذلك. فطبيعة الإنسان ووضعه العقلي والنفسي ومحدوديته ونسبيّة تفكيره وخبراته المحدودة بعوامل الزمان والمكان والبيئة المحيطة به، كلها لا تسمح له بالتجرد التام الذي يمكنه من وضع المنهج المعياري الثابت

---

48 الأسماء تعبر عن أشياء ومعان تشترك في سمات عامة، والأسماء تميز مفردات المعرفة، والأسماء هي المداخل الأساسية للسعي في عالم المعرفة، وإدراك الأسماء هي الخطوة الأولى في بناء العلم البشري اجتماعياً كان أم طبيعيا! وأنظر الدراسة القيمة للموضوع التي قدمها الأستاذ الدكتور محمد فرج الدمرداش وطبعها المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام 1996 م في القاهرة.

لتفكيره ومعارفه وتصوراته وعقيدته، ونظم حياته وتشريعاته من داخله، فالضعف والوهن والنقص العلمي والنسبية تحد من قدرته على تحقيق ذلك.

ولقد تمكن الإنسان في الماضي والحاضر من وضع جملة من القوانين والقواعد، وبنى كثيراً من المعالم الحضارية، لكن عجزه وعدم قدرته على الوصول لأسباب الهداية والأخذ بها، وإدراك بعد الغيب في الواقع على الوجه الصحيح، وفهم علاقته به وبالوجود، كان وراء انهيار كثير من الحضارات وتراجعها. ذلك أن منهج العلم والعمل في هذا الكون، الصالح لتزويد الإنسان بالهداية المطلوبة، لا يمكن أن يأتي به بشكله المتصف بالصحة المطلقة، إلا خالق الإنسان والكون والحياة وهو الله –سبحانه–، فالإنسان لا يستطيع أن يجعل من نفسه مصدراً لمعرفته –كلها–، أو بكل أنواعها، فهناك معارف لا بد أن تأتي للإنسان من مصدرها المتعالي المتجاوز للإنسان، فليس الإنسان سيد الكون المطلق أو خالقه بل هو مستخلف فيه.

ومن هنا كانت سنة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته تمثلان نبراساً للبشرية في كونهما التجربة الكبرى المشتملة على تجارب سائر النبيين والمرسلين، فسنته عليه الصلاة والسلام هي السنة الكبرى والسيرة الشاملة، وتمثل كل سنن الأنبياء الذين سبقوه؛ فنرى فيها نوحاً وصبره ومثابرته، وإبراهيم وجهاده وتبتله وطاعته، وموسى وكفاحه وحرصه على قومه، وعيسى وزهده وكفاحه لربط قومه بحقائق الدين، لا بمظاهره وقشوره. والقرآن خلاصة الوحي الإلهي، والسنة خلاصة سنن الأنبياء وتجاربهم مع أقوامهم. فالقرآن والسنة –بهذا الاعتبار– قادران على التمكين لقوافل الساجدين من البشر، وحمايتهم من محاولات إبليس وحزبه في ضمهم إلى موكب الرافضين للسجود. من هنا تصبح القراءات التجزيئية للكتاب وللسنة قراءات خطرة إذا لم تربط بالكليات والقيم والمقاصد العليا.